عبد الرحيم البُرعِي اليماني (ت803هـ) حياتهُ وشعرهُ

Abderrahim borai Yamani (-803H) Sa vie et ses poésie

أ. بن بوزيان سليم§

د. مستاري إلياس**

تاريخ الاستلام: 09-10-2019 تاريخ القبــول:26-04-2020

ملخّص: يتناول هذا المقال شخصية أدبية متميزة من العصر الرسولي من زوايا متعددة، تاريخية وثقافية وفنية، إذ يقدم في قسمه الأول صورة موجزة عن العصر الذي عاش فيه البُرَعِي وما سبقه بقليل، أما في قسمه الثاني فيجتهد في تقديم ترجمة لهذا الشاعر من شأنها أنْ تضيء لنا الطريق لفهم حياته وشعره فبالرغم من شهرته الواسعة ليس في اليمن فحسب؛ بل في سائر العالم الإسلامي إلاَّ أن ترجمته تكاد تكون مجهولة، فقد تخبط في تاريخ حياته كل من أرَّخَ له، وأما البعد الأخير فقد تناول الموضوعات والأغراض الموجودة في شعره، ووفق هذا التصور يكون المقال

§ جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، البريد الإلكتروني:
salim.benbouziane@univ-biskra.dz (المؤلّف المرسل)
§ جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، البريد الإلكتروني:
lyesmous05@gmail.com

قد أضاف جهدا جديدا في تراجم الشعراء لا يجدها القارئ بهذه الصورة في أي مرجع آخر.

كلمات مفتاحيّة: عبد الرحيم البُرَعِي، الديوان، شعر، ترجمة، العصر الرسولي، اليمن، القرن الثامن.

Abstract : Cet article traite une personnalité littéraire de l'ère apostolique sous plusieurs angles historiques, culturelles et artistiques, donnes dans sa première partie, il nous donne un petite image sur l'ère que Borai vivait ou bien avant, Mais dans la deuxième partie, il a fait tout son possible pour présenter une traduction à ce poète afin que nous donne une conception sur sa vie et sa poésie , Malgré tout sa célébrité dans tout le monde, n'est seulement en Yamen, sa traduction peut être inconnue, Mais, la dernière angle a traité les sujets et les objectifs trouvées dans sa poésie, et selon cette vision l'article a enrichit un nouvel effort dans les traductions des poètes que le lecteur ne les a trouvé dans aucune référence.

Les mots clés: Abderrahim elborai_le divan_ le poète_ la traduction_ l'ère apostolique_ Yamen_ Huitième siècle .

المقدّمة: قامت الدولة الرسولية في مطلع القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي وتعدُّ أشهر الدويلات المستقلة التي قامت في اليمن في العصر الإسلامي، ولقد اشتهر فيها الكثير من الأدباء والشعراء فمنهم من جمعت له دواوين كبيرة كالأديب ابن أبي القم والخطاب والحجّوري وغيرهم، وآخرون ذاع صيتهم ورويت أشعارهم وشاعت لكن لم يحظوا باهتمام النقاد القدامى، ولعل مَردَّ ذلك قلة أشعارهم وتصانيفهم، فهي قليلة مقارنة بسابقيهم؛ ومن هؤلاء ابن المقري وعبد الرحيم البرعي، هذا الأخير نحاول أن نتعرف عليه في هذه الورقات البحثية وعلى حياته وسيرته وعلى أعماله الشعرية، قصد إعادة الاعتبار لشعرائنا الذين أهملوا عن قصد، أو عن قلة تنقيب وبحث في تراثنا العربي، منطلقين من جملة من الأسئلة لعل أبرزها: من هو عبد الرحيم البرعي؟ وبما اتسم العصر الذي عاش فيه؟ وما الموضوعات والأغراض الواردة في شعره؟

1. عصر الشاعر: قبل أن نبدأ الحديث عن هذا الشاعر الفقيه بشيء من التفصيل والتطويل ارتأينا أن نقدم صورة موجزة عن العصر الذي عاش فيه وما سبقه بقليل، أعفيناها من التطويل والتثقيل، فعرضنا أولا للحال السياسي وأهم ما وقع فيه من أحداث ،ثم للحال الاجتماعي وأبرز ما فيه من خصائص ،ثم للحال العلمي والمستوى الذي بلغه العلم في ذلك العصر وذلك لنتبيَّن أي زمن عاش فيه، وما كان يحمل ذلك العصر من سمات وخصائص.

.2 .1الحال السياسي: لم نقف على تاريخ مولد الشاعر عبد الرحيم البرعي بعد بحثنا الطويل عنه في بطون الكتب والمصادر القديمة التي عنيت بتراجم الأعلام والرجال، وكل ما تحصلنا من وراء هذا البحث المضني بصيص من المعلومات عنه،

من شأنها أن تضيء لنا الطريق لفهم حياته وشعره، وهذا يدل على أنَّ هذا الشاعر لم يحظ من الكتَّاب **القدامى بالعناية** الكافية، واقتصر حديث معظمهم عنه على إيراد نسبه وتاريخ وفاته، متبوعا بأبيات من شعره.

وبالرغم من شهرته الواسعة فإن ترجمته تكاد تكون مجهولة، وقد تخبط في تاريخ حياته كل من أرَّخ له، فزعم صاحب معجم المطبوعات أنه من أهل القرن السادس وسار على هذا الخطأ جورجي زيدان و بروكلمان و النبهاني، وخمَّن الخفاجي حياته في القرن الثامن أو العاشر، والخبر اليقين نجده عند المؤرخ عبد الوهاب البريهي الذي انفرد بترجمته من بين سائر المؤرخين في اليمن، فقد ذكر أن اسمه عبد الرحمان بن علي المهاجري البرعي، وبلده النيابتين في اليمن، وكان يسكنها إلى أن توفي، وقرأ الفقه والنحو على جماعة من علماء وقته، فلما تأهل للتدريس والفتوى أتته الطلبة من كل جانب، فدرس وأفتى واشتهر بالعلم والعمل، وله مدائح في النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد أفادتنا ترجمة البريهي للبرعي في مسائل مهمة عن حياته، أهمها تحديد سنة وفاته، وما ذكره قريب للواقع، حيث أن البرعي مدح أشخاصا متأخرين من أهل القرن الثامن كالشيخ أحمد بن أبي بكر الرداد المتوفى سنة 821هـ، والشيخ عمر بن محمد العرابي المتوفى سنة 827هـ، وغيرهما من المشايخ.

والراجح أنَّ عبد الرحيم البرعي ولد في عهد الدولة الرسولية التي امتدت من سنة 625 هـ إلى سنة 859هـ، لكننا لا نعلم في أي عهد من عهود ملوكها ولد، وكان بنو رسول رسلا لبني أيوب من ملوك مصر، كانت العاصمة الجَنَد ثم ثعبات وقاهرة تعز من سنة 625هـ إلى سنة 859هـ، ثم استبدُّوا بالحكم بعد أن ضعف الأيوبيون،

ولم تذكر المصادر القديمة التي تناولت شيء من ترجمة الشاعر السنة التي ولد فيها، فالمصادر والشعر لم يسعفونا بشيء من ذلك.

أما عن حال اليمن السياسي في تلك الفترة، فكما هو معلوم لدى كل من له اطلاع على تاريخها الطويل الذي كثر فيه اندحار الدول الكبيرة على أيدي دول ناشئة يكون أفرادها في الغالب من رجال تلك الدولة المندحرة، وهذا ما حدث فعلا في القرن السابع هجري عندما انتهى حكم الأيوبيين في اليمن على أيدي عمالهم من بني رسول، على أنَّ سقوط الدولة الأيوبية قد مهد له عدة عوامل داخلية وخارجية، بل إنَّ هذا السقوط كان أول العلامات لموت هذه الدول الكبيرة واندثارها من مسرح الأحداث نهائيا.

ففي سنة 626هـ أعلن الأمير عمر بن علي الرسولي الحكم لنفسه، وعن قيام مملكة جديدة في اليمن، فكان هذا التاريخ بداية ظهور الدولة الرسولية في اليمن، ومكث الأمير بزبيد مدة من الزمن وطد فيها دعائم ملكه، ثم رحل إلى صنعاء وغيرها من البلاد اليمنية ودانت له سائر البلاد. وبالملك المنصور عمر بن علي الرسولي تبدأ أشهر دولة عرفها تاريخ اليمن في عصوره القديمة والحديثة، وقد اكتسبت شهرتها من حيث الفترة الطويلة التي حكمت فيها، وبتشجيعها للعلم والعلماء، والاستقرار النسبي الذي شهدتّه البلاد في عهدها. ونعتقد أن البرعي قد ولد في عهد الملك الرسولي المؤيد داود بن يوسف المظفر (696هـ-721هـ)، وعاش البرعي إلى سنة 803هـ، حيث توفي في عهد الملك الأشرف الثاني إسماعيل بن العباس سابع ملوك الدولة الرسولية، الذي توفي هو الآخر في العام نفسه(778هـ-803هـ)، ولا ندرى أيهما سبق أجله أجل الآخر، ويكون بهذا التخمين قد عاصر أربعة ملوك من أصل أربعة عشر ملكا من الدولة الرسولية، هم على الترتيب:

الملك (الدولة الرسولية)	مدة حكمه	من	إلى
المؤيد داود بن يوسف المظفر	25 سنة	696هـ	721هـ
المجاهد علي بن المؤيد	43 سنة	721هـ	764هـ
الأفضل بن العباس المجاهد	14 سنة	764هـ	778هـ
الأشرف الثاني اسماعيل بن العباس	25سنة	778هـ	803هـ

وقد أدرك البرعي الدولة الرسولية في أوج قوتها وأزهى أيامها، وكذلك في أيام ضعفها وفتورها، فقد شهد حكم المؤيد داود بن يوسف المظفر الذي لم يخلو حكمه من بعض الإصلاح العمراني والرقي، حيث إنه تم بناء القصور الضخمة والمتنزهات الكبيرة، وساد حكمه فترة هدوء شامل.

وفي سنة 720هـ توفي المؤيد، فخلفه ابنه المجاهد علي بن داود الذي كثرت في عهده الهرج والمرج، وحدثت ثورات عديدة، حيث وقعت معارك عديدة بين الدولة والقبائل التهامية كالمعازبة والأشاعر وغيرهما، وطمع أقاربه في الملك، فقد كانت نفوسهم طامحة في الحكم مشرئبة إليه، «ولم تمض سوى سنة واحدة حتى يقوم أحد الثوار وهو ابن عمه المنصور أيوب بن يوسف بن عمر بالاستلاء على الحكم، وإيداع المجاهد السجن لمدة ثلاثة أشهر ثم قام أحد مماليكه الموالين له بإعادة الملك المجاهد إلى كرسيه وطرد منافسه المنصور».

وفي سنة 764هـ توفي المجاهد، ثم جاء من بعده في الحكم ابنه الملك الأفضل عباس بن علي ابن داود، فكان أول ما قام به هو مطاردة الثوار الخارجين والمتمردين على الدولة وحدثت بينه وبين القبائل الخارجة عليه مواجهات ومعارك خلفت الكثير من القتلى والفوضى وبقى الوضع على هذه الحال إلى أن توفي الأفضل بمدينة زبيد سنة 778هـ فخلفه ولده الملك الأشرف الثاني اسماعيل، وقد تجددت بينه وبين أعداء أبيه معارك حدثت في صنعاء ثم قامت قبيلة المعازب بتمرداتها المعتادة حتى كادت أن تأسر الملك الأشرف نفسه عند مدخل زبيد، وتوجه أعدائه سنة 791هـ لغزو زبيد فنزلوا في مكان يقال له (رمع) وحاصروا زبيد مدة من الزمن، ولم يدخلوها ،وكانت وفاة الأشرف بمدينة تعز سنة 803هـ ودفن في مدرسته الأشرفية التي بناها في ناحية عدينة. والظاهر في قيام الدولة في هذا العصر أنها ما كانت تقوم على أساس الشورى بين المسلمين، ولا على أساس اختيار الأصلح، «فقد أسس ملوك بني رسول دولة وراثية تعتمد على ولاية العهد»، فكانت الخلافة ملكا عضوضا، كما كان الحال في الدولة التي سبقتها، فقد ورثت الدولة الرسولية الحكم الوراثي من الدولة الأيوبية وربما قلدتها في الكثير من أسس الحكم ومناهجه، لذلك كانت البلاد مسرحا في بعض الفترات من تاريخها الطويل للفتن والاضطرابات والمحاولات الكثيرة التي تهدف لقلب نظام الحكم.

هذا قيض من فيض عن الحالة السياسية لدولة بني رسول في اليمن، وربما الكثير من الفتن والاضطرابات التي ذكرنا بعضها آنفا قد عايشها البرعي واكتوى بنارها، على الرغم من أننا لم نعثر في ديوانه الشعري على ما يشير إليها أو يذكر وقائعها،

وربما سبب ذلك تقديمه مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومدح بعض شيوخه الصوفية على كل شيء.

3 .1 الحال الاجتماعي : لقد أدرك البرعي –كما سبق أن بيَّنا–جزء من عهد الدولة الرسولية، وكان هذا العهد من أخصب العهود التي عرفتها اليمن، ولعل أبرز سمة تميَّز بها ذلك العصر استقدام الغرباء، والاعتماد على القوى الأجنبية، فقد كان علامة خاصة بالدولة الرسولية

« فصاحب اليمن أبدا يرغب في الغرباء ويحسن تلقيهم غاية الإحسان، ويستخدمهم فيما يناسب كلا منهم، ويتفقدهم في كل وقت بما يأخذ به قلوبهم و يوطِّنهم عنده » هذا التوجه كان له أثر سلبي على ملوك الدولة الرسولية وعلى الدولة نفسها ،« فقد حملت أخلاق ملوك بني رسول جانبا آخر من العادات والتقاليد المستوردة كان لها أثرها الفعال في تطعيم الدولة الرسولية بعادات وأخلاق جديدة لم يكن للبلاد عهد بها من قبل، فقد تشبه أولا ملوك الدولة الرسولية بملوك مصر من المماليك المعاصرين لهم، وحرصوا كما هي العادة عند أولئك الملوك على شهواتهم وملذاتهم حتى أصبحت أوقاتهم مقصورة على لذاتهم والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين » .

كما أن بعض الملوك في ذلك العصر تباهوا ببناء القصور، وأسباب الترف والإسراف، وقد أصبح بيت المال الذي أعدَّ لمصالح الأمة ملكا خاصا لهم خاضعا لشهواتهم وتصرفاتهم، وأحاط ببعض الملوك ثلة من الشعراء المحترفين، والندماء المتزلفين المتملقين، تنفق عليهم أموال الصدقات بسخاء، وتغدق عليهم الهدايا والهبات. وأكثر من هذا لغوا وغلوا؛ ولع بعض ملوك الدولة بشرب الخمر والمجاهرة به أمام العامة،

«منذ ملكهم الأول المنصور عمر بن علي الذي جاهر بشرب الخمر والسكر في ديوانه حتى كان يعقد لمجلس الشراب يوما معلوما».

أما عن أخلاق أهل اليمن، فنجد أن قليلا من المؤرخين من رصد أخلاق المجتمع اليمني في ذلك العصر وعاداتهم، ولعل من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بحياة المجتمع في تلك الفترة هو عبد الرحمان بن محمد الحبيشي، الذي تحدث كثيرا عن أخلاق وعادات بعض المدن والقرى اليمنية كوصاب، التي اشتهر أهلها بإكرام الضيف وحرصهم على المروءة والشرف، ولم يكن في البلدة مخمارة واحدة ولا من يشرب الخمر، فلا يعرف الخمر بها ولا أحد منهم شربه.

كما شهد المجتمع اليمني تقدما ملموسا في التجارة والحياة المعيشية خصوصا في المدن حتى زاحم الأغنياء بقصورهم قصور السلاطين والأمراء، ويكون في قصر الواحد منهم حاشية من العبيد وعدد صالح من الإماء، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد من الهند والحبشة، كما تفنّن أهل اليمن في صناعة الأطعمة، حتى أنه يطبخ في منزل الرجل منهم عدة أنواع من الأطعمة، وتطيب أوانيها بالعطر والبخور .وبجانب هذه الحياة الباذخة، والسرف والترف، نجد رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله وتزكية النفوس ونشر العلوم الدينية، والعكوف على التعلم والتعليم، وثاروا على حياة المادة والترف وإغراءاتها وزخرفها، فأقاموا بجنب الحياة المترفة حياة زاهدة، تقوم على الإيمان وتقدير القيم الروحية والخلقية.

4. 1.الحال العلمي: كان عصر البرعي الذي عاش فيه من أزهى العصور العلمية، فقد عرفت « اليمن في العصر الرسولي (626هـ- 858هـ) نهضة علمية وثقافية واستقرارا اقتصاديا وسياسيا وتطورا في الزراعة والصناعة، وشهدت مدن اليمن المختلفة توسعا وتطورا في العمران والبناء لم يسبق له مثيل» ، فقد انتشر العلم في ذلك العصر، وعمَّ أكثر المدن والقرى اليمنية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الملوك الرسوليين كانوا من العلماء، فاجتهدوا في طلب العلم ونشره، وشجعوا العلماء وأنزلوهم المكانة التي تليق بهم، وشيَّدوا المدارس والمعاهد، واستضافوا الكثير من العلماء المشهورين واستقدموهم من مختلف أقطار العالم الإسلامي، وحبَّبوا إليهم البقاء والعيش في اليمن بغية الاستفادة والاستزادة من علومهم . ويذكر لنا الخزرجي صاحب كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية أخبارا عن ملوكها، نحسب أن البرعي قد عاصر بعضهم وشهد أيام خلافتهم؛ فقد ذكر أن الملك المؤيد داود بن يوسف شارك وأخذ في جميع العلوم على يد علماء كبار، وقد أجازه شيخ السنة بالحرم المكي أبو العباس أحمد بن محمد الطبري في صحاح البخاري ومسلم والترمذي، وكان المؤيد شاعرا، له ديوان شعر، وكان هاويا لجمع الكتب، وكانت له مؤلفات عديدة في اللغة والأدب، أما الملك المجاهد علي بن داود؛ فقد كان حافظا لكتاب الله، و أخذ العلوم المختلفة على يد علماء وفقهاء مشهورين من اليمنيين والغرباء، وله مناظرات في العلم ومشاركات واسعة، ولا ريب في ذلك؛« فقد عدَّ من أعلم ملوك بني رسول» ، أما آثاره المعمارية، فقد أنشأ المدرسة المجاهدية بمكة المكرمة، والمدرسة المجاهدية في مدينة تعز، وكان تشيد المدارس في ذلك العصر سلوكا وثقافة شكلت جزء هاما من حياة الحكام والمحكومين.

أما الملك الأفضل العباس بن علي، فقد كان « عارفا ذكيا، أديبا ومؤرخا، فقيها عارفا، مشاركا للعلماء، دقيق النظر في فنون العلم، مُلِمًّا بالآداب والأنساب والتواريخ، والنحو واللغة وسير العرب والملوك، له الكثير من المصنفات في علوم مختلفة»، وسيرة الأشرف اسماعيل بن العباس لا تختلف كثيرا عن الملك الأفضل، فكل ملوك الدولة الرسولية –كما سبق وأن بيّنا– كانوا علماء مهتمّين بالعلم، فكان الملك الأشرف « يقرب العلماء إليه ويجلّهم ويكرم الغرباء منهم، واستقرت أحوال الناس في عصره وشارك في علوم جمة، وكان يحب جمع الكتب ومولعا بالعلوم مشغولا بها» .

ومعلوم أن الناس على دين ملوكهم، فقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم الحافلة بالعلم تأثيرها الطبعي في حياة العامة والخاصة على سواء، والحقيقة أن حرص الحكام على نشر العلم وبثّه وتوقير العلماء وإكرامهم، وإنشاء المدارس والمنشآت التعليمية والاهتمام بالمدرسين وطلبة العلم والإنفاق عليهم بسخاء؛ يعدُّ واحدا من أبرز مظاهر مشاركتهم الرائدة في تطوير الحياة العلمية والثقافية في اليمن في عهدهم فضل يذكر أيضا لملوك الدولة الرسولية وهي« أنهم كانوا يحثون العلماء على وضع المصنفات المفيدة إذا رأوا حاجة إليها فظهرت في هذا العصر مصنفات علمية ثمينة أفادت المكتبة الإسلامية عامة» .

وقد ازدهرت في عصر البرعي أنواع من العلوم من حديث وفقه وأدب، وظهر فيه أفذاذ كبار من رجال الحديث والفقه، ونبغ فيه علماء عظام كالفيروزبادي ومحمد بن أبي بكر الفارسي و الصنبري و الكمراني، ومن شاكلة الكمراني كثير من العلماء الذين ساهموا بشكل كبير في نشر العلوم وتطويرها، « وبفضل العلم وهؤلاء العلماء صارت اليمن في ذلك العصر واحدة من أقوى دول الشرق في العصور الوسطى، بل

إن اليمن تميزت عن غيرها من شعوب العالم الإسلامي في تلك الفترة بأنها صنعت نموذجا علميا وثقافيا عربيا إسلاميا عظيما، قام على أساس وجود توازن سياسي، بل وشراكة سياسية بين أولئك العلماء والملوك وعامة الشعب .

2.ترجمته: هو عبد الرحيم بن أحمد بن علي البُرَعي اليماني: شاعر متصوف من سكان النيّابتين في اليمن، أفتى ودرس، نسبته على (بُرَع) بوزن عُمَر : جبل بتهامة (كما في التاج)، وممن نسب إلى جبل برع أيضا، نذكر الشاعر المعروف بابن مكرمان البرعي الحميري من أعيان المائة السادو في معجم البلدان؛ (بُرَعُ) بوزن زُفَرُ: جبل بناحية زبيد باليمن، فيه قلعة يقال لها حُلْبَة وهي قرب سَهَام، ويسكنه الصنابر من حمير، وله سوق، وتَفرقُ بين برع وبين ضلع رَيمة و« الصنابر قبيلة من حمير، وهم الصنابر بن ذي نصبان بن ذي ثابت بن حسَّان ذي الشعبين ابن سهل بن زيد بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس، ومن الصنابر بطون في جبل برع وبلاد ريمة (...) وينسب إليهم الشيخ المقرئ مهدي بن علي بن إبراهيم الصنبري، المتوفى بمدينة المهجم سنة(- 815هـ)» ، ولعل عبد الرحيم البرعي يرجع نسبه إلى الصنابر، كونه كان سكن في الأماكن التي استوطنها هؤلاء.

أما في معجم البلدان والقبائل اليمنية؛ « ف (بُرع) بضم الباء ؛جبل عظيم يقع شرقي مدينة الحديدة على بعد 60 كيلا، وارتفاعه 2400 مترا من سطح البحر، وهو من الجبال الوعره صعبة المرتقى، تحيط به الوهاد والمهاوي الممعنة في التقعر والارتفاع والانخفاض ومن بين جنباته تنحدر مسيلات وادي سهام».

وقد اشتهر البرعي بالعلم والوقار والتفقه في الدين، ومن ذلك ما أورده صاحب كتاب ملحق البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع في ترجمته، فقال فيه: هو « الشيخ العالم الشاعر البليغ الشهير عبد الرحمان بن علي البرعي المهاجري اليمني، سكن وطنه النيّابتين، وأخذ النحو والفقه على جماعة من علماء عصره، حتى تأهل للتدريس وأتته الطلبة من أماكن شتى، فدرس وأفتى واشتهر بالعلم والشعر، وهو من العلماء الأحبار المجتهدين، والشعراء المجيدين، وله ممادح كثيرة في النبي صلى الله عليه وسلم ، وديوان شعره مشهور، ومن شعره القصيدة التي أولها:

بالأبـرق الفرد أطلال دريسات لآل هند عفتهنَّ الغمامات مات في سنة (803هـ) ثلاث وثمانمائة». أما في كتاب طبقات صلحاء اليمن للبريهي، فقد جاء في ترجمته ما يأتي: «ومن أهل برع الفقيه العالم الفاضل؛ عفيف الدين عبد الرحيم بن علي المهاجري نفع الله به بلده النيّابتين، كان يسكنها إلى أن توفي رحمه الله، قرأ الفقه والنحو على جماعة من أئمة وقته، فلما تأهل للتدريس والفتوى أتته الطلبة من أماكن شتى، فدرّس وأفتى واشتهر بالعلم والعمل، ترجم له بعضهم فقال: هو أحد العلماء الأحبار وبقية الفضلاء الأخيار، سبق العلماء المجيدين والشعراء المجودين، وله ممادح في النبي صلى الله عليه وسلم». وعلى الرغم من أن البرعي اشتهر بالعلم والفقه وقرض الشعر كسائر الشعراء في عصره، كابن المقري اسماعيل بن أبي بكر وابن هتيمل القاسم بن علي وغيرهم، إلا أننا لم نعثر على مصنفات له في الفقه أو النحو والأدب، والراجح أنه لم تكن له تصانيف علمية كابن المقري مثلا؛ شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء، والذي ألَّف عدة كتب، ككتابه الإرشاد وروض الطالب في الفقه.

والبرعي هو الشاعر الوحيد في العصر الرسولي – حسب الحبشي– الذي لم يقصد الملوك والرؤساء لمدحهم ،ولم يتكسب بشعره في أغلب الأحيان، على الرغم من أنه مدح جماعة من أعيان العلماء والصوفية، منهم الفقيه إبراهيم بن محمد الحكمي،والشيخ الصالح احمد بن عمارة وغيرهم من المشايخ الذي مدحهم وأثنى عليهم في ديوانه وربما احتاج الشاعر إلى المال والعون، فمال بشعره إلى من عنده العون والمال، من بعض الأثرياء غير المتصلين بالدولة الرسولية، والقارئ لشعره يجده يصرح بفقره وقلة ذات اليد وبعائلته الكبيرة التي مسّها شيء من العوز ، يقول :

أما تراني لأطفال صغار أبوهم من محلتهم طريد

يمرُّ العيد بالصبيان لهوا وليس معهم مع الصبيان عيد

ويعلن عبد الرحيم البرعي عن فقره وإفلاسه، وهموم حياته البائسة التي أثقلت كاهله، فيقول:

فقر وإفلاس ودهر خائن وهموم عائلة وضيق مكان

وعظيم دين لا يقوم بحمله رضوى ولا الصخرات من ثهلان

أيا سيدي شهر كريم وغربة ودين أقاسيه ولست به جلدا

وغيبة أطفال وبعد منازل وإخوان صدق ذبت من أجلهم فقدا

فقضّ لباناتي ونجّح مطالبي وما اسطعت من برٍ فلا تأنـــــي جهدا

وكما هي عادة الشعراء في ذلك الوقت، فقد تكسب البرعي بشعره عند بعض أعيان عصره من العلماء والتجار، حيث دلت قصائده أنه كان يسافر إليهم في رمضاء

رمضان ويطلب منه العون، ومن ذلك رحلته إلى الفقيه الصالح إبراهيم بن محمد الحكمي يستجديه ويطلب الخير والمدد، وكان قبل ذلك قد مدحه وذكر شمائله ومناقبه يقول البرعي :

وليس بين أيدينا شيء عن طفولة الشاعر وصباه، كما أننا نجهل تماما علاقاته بأفراد أسرته وهل نشأ في ظل أبويه أو أنه عاش يتيما بعد فقد أحدهما أو كليهما، فلم يذكر في شعره شيء يدل على نسبه أو على أهله أو على جوانب من حياته، كما أن المؤرخين لا يذكرون شيئا عن حياته، والمهم « أن البرعي رجل مارس الحياة فلم يكن من ذوي التزلف والغرور وهو صاحب استقامة خلقية جعلته ينزل إلى الفقر والإفلاس على عكس من عاصرهم من الشعراء والأدباء الذين جعلوا من مسايرة الملوك والرؤساء وسيلة للتجارة الفكرية وفوق ذلك فإن البرعي صاحب خصوم وأعداء، فهو يشكو منهم كثيرا ويدعو عليهم أحيانا.

3.شـــــعره: للبرعي « ديوان مطبوع وفيه شعر جيد» ، تميز بجيشان العاطفة وقوة الأسلوب كما اتسم بالسهولة والرشاقة والرقة ،« وإن كانت معانيه في الشعر قليلة جدا، فهو صورة متكررة من صور العصر الرسولي» ، حيث يكثر إغراقه في التقليد والمحاكاة لشعراء العصر الذهبي في الإسلام، أمثال حسان بن ثابت و من جاء بعده فالكثير من شعره محاكاة لمن تقدمه من الشعراء، فالبرعي مقلد مغرق في التقليد حتى أنه ربما أمعن في تقليد الشعر الجاهلي، حيث سار في بعض مقدمات قصائده على طريقة الجاهليين من التشبيب بالنساء ووصفهن بالصور المعتادة في شعرهم، ففي غزله نجد مادة كبيرة من التشبيهات المعتادة المتكررة، حتى أنه يستعمل تلك المواضع والأسماء التي استعملوها في شعرهم.

كما أن المواضيع التي تطرق إليها في شعر نحسبها مواضيع عادية، لا تخرج عن الحدود التي سنَّها لها فحول الشعراء في العربية، ويبدو أن البرعي من الشعراء المحافظين الذين لم يخرجوا عن حدود الأدب بمفهومه الخلقي، فقد حافظ على قوانين الأخلاق، ولم نجد ذلك الإسفاف الذي عهدناه في شعراء العصر العباسي والعصر المملوكي في مصر من الغزل بالغلمان والإباحية التي تخرجه عن القواعد الأساسية للآداب، فقد سن لنفسه منهجا دينيا صارما لا يكاد يحيد عنه، كما ولع بمدح الصوفية والأولياء، وذكر آداب المتصوف مع شيخه.

وفي غزله نلمس تلك اللوعة والحرقة، وهذا نابع أساسا من طبيعة الشاعر، تميل به إلى التأثر السريع، فللبرعي قصائد جميلة في الغزل، حيث يسلك فيه عدة طرق وأساليب؛ فهو يشكو من الهجر والبين، كما يصف لقاءه بالحبيب ويبدع في ذكر محاسنه، ويلحي على اللاحين ويجيد في تصوير وداع الحبيب إلى غير ذلك من الطرق التي يستعملها الشعراء، فمن شكواه لفقد الحبيب:

أتأمرني بالصبر والطبع أغلب ... وتعجب من حالي وحالك أعجب

وتطلب مني سلوة عن ربائب ... وراهنَّ أرواح المحبين تطلب

فما قرَّ لي دمع ولا كفَّ مدمعٌ ... ولا طاب عيـــش ولا لذَّ مشــرب

وهو من الداعين إلى التصبر في الحب واستعذابه:

لقيت يا نفس حقا ما حكى الحاكي ... فامضي لشأنك إني لست ألحاك

واستعذبي غصص التعذيب راضية ... وحكمي الحب علَّ الحب يرعاك

واستنظري فرص الأيام عائدة ... واستعملي الصبر وارعي ترك شكواك[1]

وفي هذه الأبيات يبدع في تصوير الأيام الخوالي التي مضت مع محبوبته:

أيام ليلي بوادي السدر نازلة مقيمة خدرها المضروب يمناك

والعيش أخضر والأيام مشرقة وعين ربِّ الهوى العذري ترعاك

ونظرة جلبت حتفي وليس لها شـــــاك لأني أنا المشكو والشاكي[2]

ولم يرج مذهب التهتك والمجون في الشعر اليمني في العهد الرسولي، فأنت لا تكاد تقف على قصائد لشعراء اليمن في المجون كالتي عرفت عن أبي نواس وابن سكره الهاشمي وغيرهما من شعراء العصر العباسي والمملوكي في مصر والشام، وإذا وجد للشعراء في اليمن شيء من ذلك فهو لا يكاد يخرج عن دائرة الغزل العذري البريء، فقد انعدم أو كاد شعر المجون في شعر شعراء الدولة الرسولية، كالبرعي وابن المقري وابن حمير ومن عاصرهم من الشعراء.إلى جانب غزله، نلفي في شعره بعض الأفكار الصوفية، فقد كان من الشعراء الصوفية، المتأثرين بالطرق الصوفية التي كانت شائعة في عصره، حيت انتشرت انتشارا عريضا، وتغلغلت في أواسط الشعب والخاصة على السواء وتعددت أسماؤها، وأسماء رجالها وشيوخها، فتأثر ببعض شيوخ الصوفية كالرداد والبجلي والحكمي، فكانت له الكثير من القصائد في مدحهم والثناء عليهم، كما دعا الناس إلى زيارتهم والتبرك بهم، ولم تسلم قصائده – ككل الشعراء الصوفية– من بعض الشطحات العقدية المخالفة لهدى النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله في يمدح ويعدد مناقب ومعجزات شيخه ابراهيم بن محمد الحكمي يقول : لدى حكمي لم تكن معجزاته وآياته تحصى برمل الفلا عدًّا.

إذا قال مولاي لبَّاه سل تنلْ لطائف من لو شاء أسرى به عبدا

ولو سيَّر الأجبال سارت وإن دعا ذرى صخرة لبت له الصخرة

ولو سار فوق البحر أو طار في الهوى لأمكـنه والحـــق ما جــاوزا الحدَّ

أما شوقه للأرض المقدسة والكعبة فشوق عارم، وتوددده إلى مكة ومن حولها فتودد هائم وفقد أكثر من ذكر مكة ورامة ومنى والمدينة، وهذا الأمر له دلالة نفسية دلالية فهذه المواضع لها أثر بالغ في نفس الشاعر حتى أكثر من ذكرها، وقد يتغنى الشعراء الصوفيين «في هوى الأماكن المقدسة وهم قاصدوها إلى الحج، أو لمجرد الظن والوهم، والرحلة إليها بالخيال والقلب»، يقول البرعي:

يا راحلين إلى منى بقيادي هيَّجتموا يوم الرحيل فؤادي

سرتم وسار دليلكم يا وحشتي الشوق أقلقني وصوت الحادي

أحرمتموا جَفْني المنامَ ببعدكم يا ساكـنين المنحنى والــوادي

وله في المديح النبوي قصائد كثيرة، وقد « تميز شعره بهذه الناحية حتى كان بحق شاعر المديح في عصر بني رسول، وإن كان هذا العصر قد عرف جماعة من مدّاح الرسول صلى الله عليه وسلم، كالشاعر عبد الله بن جعفر وابن هتيمل وابن المقري إلا أنهم من شعراء القصيدة الواحدة أو الأثنتين، ولم ينظموا أكثر من ذلك بخلاف البرعي الذي حصر شعره في مدح الرسول والتغني بمزاياه سالكا في ذلك نهج من سبقه من شعراء المديح النبوي، وكان هذا الشعر قد لقي حظوة كبيرة في العصور التي سبقت زمن البرعي وخاصة في عصر المماليك في مصر والشام وكان أشهر من نبغ في ذلك الوقت البويصري وعائشة الباعونية وغيرهما » من الشعراء الذين ولعوا بمدح خير البرية.

وشعره في مديح رسول الله كله جيد، اتسم بالسهولة والرقة، فلا غرابة إذا اشتهر تلك الشهرة الواسعة ليس في اليمن وحسب، بل في سائر أنحاء العالم الإسلامي، ومن قصائده في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، قوله:

نبيٌّ تغار الشمس من نور وجهه بهيٌّ نقيٌّ الثَّغر أحور أدعـــــج

تزيد به الأيام حسنا ويزدهي به الديـــن والدنيـــا به تتـبرَّج

خاتمة: وختاما نقول إن الشاعر عبد الرحيم البرعي واحد من أبرز شعراء القرن الثامن في دولة بني رسول في اليمن، تميّز شعره بالسلاسة وقوة الأسلوب، وغلبة النفس الصوفي وكثرة المدائح النبوية، التي شغلت حيزا كبيرا في شعره مقارنة بالأغراض الأخرى، ولم يحظ ديوانه – رغم ذلك– بعناية النقاد والباحثين قديما وحديثا، وتفرّدت هذه الدراسة بتقديم ترجمة عن حياة الشاعر وشعره، وإبراز السّمات الفنّية التي تميّز بها شعره، والقارئ لمنجزه الشعري يلاحظ تعدد أغراضه وموضوعاته ولعل هذه المميزات تكون سببا لاهتمام الباحثين بشعره مستقبلا ؛دراسةً وتحليلاً.

المـــــــراجع:

(عبد الله محمد الحبيشي، 1977).

(حسين بن علي العروسي، 1991)

(محمد بن محمد بن زبارة اليمني، د،ت)

(يحي بن الحسين بن القاسم، 1968)

(شهاب الدين العمري، تح: كامل سلمان الجبوري، 2010)

(محمد علي العروسي، 2010)

(علي بن الحسن الخزرجي، 1983)

(محمد بن يحي الفيفي، 2005)

(مؤلف مجهول، تح: عبد الله الحبشي،1984)

(عبد الرحيم البرعي، تح: عبد الرحمان المصطاوي،2007)

(ابراهيم أحمد المقحفي، 2002)

(ياقوت الحموي، 1977)

(عبد الوهاب البريهي، 1994)

(عبد الله الطيب، 1989)

(محمد زغلول سلام، د،ت)

الهوامش:

. ينظر: عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، الجمهورية العربية اليمنية، ط1 ،1977، ص262 .

. ينظر: حسين بن علي الويسي، اليمن الكبرى–كتاب جغرافي جيولوجي تاريخي، مكتبة الرشاد، صنعاء، اليمن، ط2، 1991، ص278 .

. ينظر: عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص17 .

. ينظر: المرجع نفسه، ص18 .

. ينظر: المرجع نفسه، ص 18 .

. ينظر: محمد بن محمد بن زبارة اليمني، ملحق البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، مص، (د–ط)، ص120 .

. ينظر: حسين بن علي الويسي، اليمن الكبرى، ص 278 .

. ينظر: عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص20.

. المرجع نفسه، ص20.

. ينظر: يحي بن الحسين بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عاشور ومحمد زياده، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، (د ط)، 1968، ص558 .

. عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص23.

. شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج4، 2010، ص15.

. عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص24،23.

. ينظر: شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 15.

. عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص24.

. ينظر: المرجع نفسه، ص39.

. ينظر: المرجع نفسه، ص41.

. محمد علي العروسي، العلماء الملوك في اليمن في عصر الدولة الرسولية (626هـ-858هـ/ 1229م-1454م)، مجلة جامعة الملك سعود، مج22، السياحة والآثار(1)، الرياض، السعودية، 2010، ص45 .

. ينظر: المرجع نفسه، ص46.

. ينظر: علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تح: محمد بن الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، اليمن، ط1، 1983، ص359.

. محمد بن يحي الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن-دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية (803هـ- 827هـ)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص70.

. محمد علي العروسي، العلماء الملوك في اليمن في عصر الدولة الرسولية (626هـ-858هـ/ 1229م-1454م ص45.

. المرجع نفسه، ص55.

. تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، لمؤلف مجهول عاش في القرن التاسع هجري، تح: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 1984، ص2.

. محمد علي العروسي، العلماء الملوك في اليمن في عصر الدولة الرسولية (626هـ-858هـ/ 1229م، ص63.

. ديوان البرعي، تح: عبد الرحمان مصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص7.

. ينظر: إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمانية، دار الكلمة، صنعاء، الجمهورية اليمنية، (د، ط) ،2002 ج1، ص156.

. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، (د، ط)، 1977، مج1، ص385.

. إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمانية، ج1، ص 919.

. المصدر نفسه، ص156،157.

. محمد بن زبارة اليمني، ملحق البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، ص120.

. عبد الوهاب البريهي اليمني، طبقات صلحاء اليمن-تاريخ البريهي-تح: عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء اليمن، ط2، 1994، ص44.

. ينظر: عبد الله الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص263.

. الديوان، تح: عبد الرحمان مصطاوي، ص64.

. المصدر نفسه، ص273.

. المصدر نفسه، ص76.

. عبد الله الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص265.

. عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ط2، ج2، 1989 ص108.

. عبد الله الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص 265.

. ينظر: المرجع نفسه، ص265.

. الديوان، ص24.

. المصدر نفسه، ص153.

. المصدر نفسه، ص153.

. المصدر نفسه، ص213.

. عبد الله الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص254.

. الديوان، ص76.

. محمد زغول سلام، الأدب في العصر المملوكي–الدولة الأولى (648هـ–783هـ)، دار المعارف، القاهرة، مصر

(د ط)، ج1، ص232.

. الديوان، ص87.

. عبد الله الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، ص267.

. ينظر: المرجع نفسه، ص267.

. الديوان، ص55.